مخطوطات مفقودة .. وضياع حلقات العلم

حرق الكتب والمكتبات.. تواريخ في تدمير المعرفة

قبل أكثر من سنة نشرت في هذه الصفحة مقالة بعنوان «تاريخ ابن قاسم، وأعيان تميم للجاسر، مخطوطتان مفقودتان».

والمخطوطة الأولى من تأليف الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وهو عالم نجدي فاضل شهير، ولد رحمه الله سنة 1312هـ في بلدة البير المعروفة التي تقع شمال غرب مدينة الرياض، وتوفي عام 1392هـ. أما الثانية فمن تأليف العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جاسر «–1313 1401هـ»، وهو من تلاميذ المؤرخ النسابة الشهير إبراهيم بن صالح بن عيسى، وعنوانها «تحفة الأحباب في أعيان تميم والرباب». ويقال إن هاتين المخطوطتين قد أحرقتا أو أتلفتا، وقيل أخفيتا، وقد ذكر الزركلي أن ابن قاسم أحرق كثيرا من أوراقه.

وقبل أسابيع أخذت أبحث عن قصص مشابهة في تراثنا العربي لأدرس الموضوع، وأكتب عنه، وما إن شرعت في البحث حتى سررت بالاطلاع على كتابين رائعين لمؤلفين سعوديين في الموضوع ذاته.

الأول بعنوان «حرق الكتب في التراث العربي» لناصر الحزيمي، وهو بحث رائد في مجاله، صدر عام 2002م، ويقع في 144 صفحة. والآخر بعنوان «حرق الكتب، تاريخ إتلاف الكتب والمكتبات»، للدكتور خالد السعيد، وهو يتناول مدة زمنية أطول تستمر إلى وقت تأليف الكتاب، ويقع في 263 صفحة. ويشكر لمؤلفه الدكتور السعيد أنه لم يغمط حق الحزيمي الذي سبقه إلى هذه الفكرة بأزيد من 15 عاما، فأشار إلى ريادته وأثنى على عمله، وعد السعيد كتابه امتدادا وإضافة إلى ما كتبه الحزيمي. وسأعرض في هذه المقالة لبعض المواضيع التي وردت في الكتابين مع إضافات من مصادر أخرى.

استقصى الحزيمي أسباب إتلاف الكتب، ورأى أنها ترجع إلى ستة أسباب: شرعية، وعلمية، وسياسية، واجتماعية قبلية، ونفسية، وتعصبية، وأورد أمثلة على كل سبب منها. ويقول السعيد إن أبرز أسباب إتلاف الكتب شعور مؤلفيها «بالإحباط من مجتمعاتهم التي تجاهلتهم وربما حاربتهم ولم تمنحهم ما يستحقون من التقدير المعنوي والمادي. وهناك كتب يتعذر حصرها قامت السلطة السياسية أو الدينية، وفي أغلب الأحيان كلتاهما معا، بملاحقتها وإتلافها أينما وجدت، لما فيها من أفكار تناهض الحاكم وتؤلب العامة عليه، أو أفكار تخالف السائد من المعتقدات الدينية بين الناس».

عاش أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع الهجري، وهو باقعة من بواقع العلم والمعرفة، قال عنه ياقوت الحموي: «كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة.

تعد حادثة إحراق أبي حيان التوحيدي لكتبه إحدى أشهر حوادث إتلاف المؤلفين لكتبهم في التراث العربي، والسبب الذي دفعه إلى ذلك هو الحرمان والإهمال والبؤس والفقر الذي عاش فيه أبو حيان طوال الأعوام العشرين الأخيرة من حياته.

يتفق المؤلفان على أن الاختلافات الدينية والمذهبية كانت سببا رئيسا في إتلاف الكتب، والقصص والأخبار المذكورة في كتب التراث حول ذلك أكثر من أن تحصى، وبعضها مؤلم ومحزن.

أحد الأمثلة المؤلمة التي حدثت بين المسلمين أنفسهم ما وقع للعالم الشهير ابن حزم الأندلسي، وكان يتبع المذهب الظاهري، وهو من مذاهب أهل السنة، بينما يتبع أغلبية أهل الأندلس مذهبا آخر، فألبوا عليه ووشوا به حتى أحرقت بعض كتبه، فقال ابن حزم قصيدة حزينة منها: فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

ويدخل ما حدث لابن حزم الأندلسي ضمن الأسباب التعصبية، فالذي دفع خصومهم إلى الوشاية به هو التعصب المذهبي.

حقيقة رواها المؤرخ شمس الدين الذهبي

«نار الحجاز».. ظهورها بلغ حد التواتر

ظل علماء الحديث والتاريخ يتناقلون خبر نار الحجاز التي ذكرها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الحديث «لا تقوم الساعة حتى تَخرُج نار من أرض الحجاز تضيء أعناقَ الإبل ببُصرى»، وبصرى في بلاد الشام، ظل عبر السنين مؤمنين به على الرغم من غرابته، فمثل هذه الحادثة يصعب على العقل تخيلها، ويندر وقوعها. ولم يفهم جيدا حقيقة هذا الحديث إلا بعد قرون، وبالتحديد في عام 654هـ، حين تحققت نبوءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وظهرت النار، التي قال عنها المؤرخ شمس الدين الذهبي: «أمر هذه النار مُتواتِر... وقد حكى غير واحد ممن كان ببُصرى في الليل، ورأى أعناق الإبل في ضوئها»، وقال النووي: «تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام»، وذكر السمهودي أن ظهور النار اشتهر اشتهارا بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار.

وقد أورد المؤرخ والمحدث والمفسر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» خبر هذه النار بتفصيل مطول نختصر منه بعض الفقرات، يقول ابن كثير: «ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة، فيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه، وقد بسط القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه الذيل وشرحه. واستحضره من كتب كثيرة وردت مُتواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شُوهدَت مُعايَنة، وكَيفيَة خروجها وأمرها...». وملخَّص ما أورده أبو شامة أنه قال: وجاء إلى دمشق كتُبٌ من المدينة النبوية – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة من هذه السنة، وكُتبَت الكتُب في خامس رجب، والنار بحالها، ووصلَت الكتب إلينا في عاشر شعبان ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ورَد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح أمر عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»، فأخبَرَني من أثق به ممَّن شاهَدَها أنه بلغه أنه كتَب بتيماء على ضوئها الكتب. قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكأن في دار كل واحد منا سراج، ولم يكن لها حرٌ ولفح على عظَمها، إنما كانت آية من آيات الله عز وجَلَ. قال أبو شامة: وهذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور. ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة إشعالها أكثر من ثلاث منارات، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد مدت مسيل شظا وما عاد يسيل، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسيل نيرانا، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعد ما أشفقنا أن تجيء إلينا. ورجعت تسيل في الشرق فخرج من وسطها سهود وجبال نيران تأكل الحجارة» إلى آخر ما ذكر ابن كثير.

الرواية الشفهية تاريخ مهمل

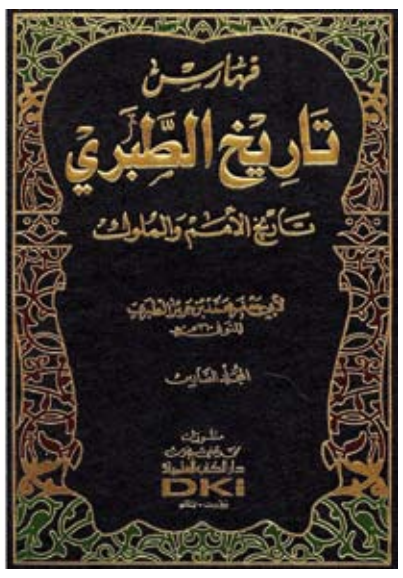

وصف التاريخ الشفهي بأنه «تاريخ ما أهمله التاريخ»، ويتفق العارفون على أنه رافد رئيس من روافد التاريخ البشري. على أن هناك من المؤرخين والباحثين من أهمل التاريخ الشفهي والرواية الشفهية نظرا لسيطرة التاريخ المكتوب والنصي عليه.

وإذا ما عدنا إلى الوراء فسنجد أن تدوين التاريخ اعتمد بشكل كبير على الرواية الشفهية، وأحد أبرز الأمثلة على ذلك تاريخ الطبري الذي يعد أهم كتب التاريخ العربي. إلا أنه بمرور القرون قل الاعتماد على الرواية الشفهية، بل أهملها بعض المؤرخين والباحثين إهمالا كاملا حتى أصبحت هناك مدرسة تاريخية لا تعترف بهذا النوع، ما أدى إلى ردة فعل لمدرسة تاريخية أخرى ترى في الرواية الشفهية أهمية كبرى في كتابة التاريخ.

وإذا نظرنا إلى الحالة السعودية فإن الدكتور سعد الصويان يعد واحدا من رواد الاهتمام بالمرويات الشفهية، وممن اعتنى بدراستها عناية كبيرة، بل عد أهم أكاديمي في العالم العربي يهتم بهذا المجال، وتحظى بحوثه ومؤلفاته في هذا الموضوع بقيمة عالمية.

كتب المرحوم الدكتور عبد الله بن إبراهيم العسكر مبحثا مفيدا عن علاقة التراث الشفهي بالتاريخ قال فيه «إن تخلي المؤرخين عن المصادر الشفهية قد ترك للمختصين في الفولكلور والأنثروبولوجيا الميدان واسعا، ما جعل تلك المصادر تنأى عن بعدها التاريخي، ولم يعترف المختصون في تلك العلوم بأهمية التاريخ في دراسة التراث الشفهي، إلا في مطلع عقد الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي، ولعل السبب هو سيطرة علماء الفولكلور على المصادر الشفهية، وكانوا يطلقون على تلك المصادر اسم الأساطير، والخرافات الوعظية، وكانوا يرونها تدل على المعنى الفلسفي والمغزى التعليمي، أكثر من كونها تحمل أي تفاصيل تاريخية، بل وصل الأمر ببعضها على التصريح بأن المصادر الشفهية لا تحتوي على حقائق تاريخية.

إن هذه الأقوال وأمثالها هو ما أخر الاستفادة من التراث الشفهي باعتباره مصدرا من مصادر التاريخ المتعددة، ومع هذا لعلي لا أبالغ إذا قلت: إن التراث الشفهي وثيق الصلة بالتاريخ، ذلك أن الأول يعد مرآة المرحلة الحضارية التي يعشيها الناس، وهو يعبر عن أفكارهم وعواطفهم، كما أنه يصور شيئا غير يسير من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة، بل إن بعض الباحثين يعتقد أن التاريخ المدون ولد في أحضان التراث الشفهي.

«كوخ العم توم» شرارة حرب وتحرير

هاريت بيتشر ستو

هاريت بيتشر ستو كاتبة أمريكية اشتهرت بكتاباتها المعارضة للعبودية. ولدت في لتشفيلد سنة 1811، وتوفيت في هارتفرد سنة 1896.

كتبت هاريت بيتشر ستو عشر روايات، ولكن أشهرها على الإطلاق روايتها الأولى «كوخ العم توم»، التي صدرت عام 1852، وناقشت في روايتها هذه قضية الرق والعبودية في الولايات المتحدة، وصورت فيها حياة الزنوج الأمريكيين قبل الحرب الأهلية. أثارت روايتها كثيرا من الجدل، وعدها البعض الشرارة الأولى لتحرير العبيد.

استقبل الرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن مؤلفة الرواية ستو، وقيل حول هذا اللقاء، وحول المؤلفة: «السيدة الصغيرة التي سببت هذه الحرب الكبيرة»، والمقصود هي الحرب الأهلية الأمريكية بين الولايات الشمالية والجنوبية عام 1861، التي انتصرت فيها الولايات الشمالية بقيادة لنكولن، وقد نشبت هذه الحرب، بسبب قرار تحرير العبيد الذي أصدره الرئيس الأمريكي. شكك البعض في مصداقية المعلومات التي أوردتها ستو في روايتها هذه، فكتبت عام 1853 كتابها «مفتاح كوخ العم توم» توضح فيه بإسهاب الحقائق التي اعتمدت عليها في كتابها الأول، وتدحض آراء المشككين. وقد لازمتها قضية تحرير العبيد فكتبت فيها عديدا من المقالات، كما كتبت رواية حول الموضوع بعنوان «دريد». ترجمت رواية «كوخ العم توم» إلى ما يقارب 40 لغة، وطبع منها عشرات الملايين من النسخ. تقول نبيلة شمس الدين: «إن الأهمية التاريخية لكتابات ستو المناهضة للعبودية صرفت الانتباه عن أعمالها الأخرى، فقد بالغت في المشاعر الدينية والرومانسية التي كانت تشد الناس في عصرها، في حين لم تحظ بكثير من التعاطف والمصداقية عند القراء الحديثين. وكانت من الرواد الواقعيين المؤثرين، إذ برعت في وصف مكان الأحداث في رواياتها بكل دقة وتفصيل، كما برعت في إظهار معرفتها العميقة، ولا سيما من خلال الشخصيات الثانوية، وبتصوير الحياة الاجتماعية المحلية، وقدرتها على نقل ذلك إلى الآخرين». ويذكر أنها سردت الأحداث باللغة العامية المحلية.

«فتاة النيل» أسطورة فرعونية تغنى بها شوقي وكذبها العقاد

أحمد شوقي

عباس العقاد

هناك مقولة جاء فيها «وخراب مصر من جفاف النيل». حمى الله مصر وبلادنا وأرضنا وعالمنا من الخراب. صاحب المقولة قد فطن إلى أهمية نهر النيل في حياة مصر والمصريين، ولعله قد استشف ذلك من مقولة هيردوت الشهيرة «مصر هبة النيل»، وقد أشار عدد من مؤرخي مصر وجغرافييها إلى أنها بلد قليل الأمطار، وهذا ما يزيد من اعتماد أهلها على النيل. وكل هذا يعيدنا إلى قول الله جل وعلا «وجعلنا من الماء كل شيء حي». ولنهر النيل ذكر خالد وعريض في تاريخ الإنسانية، وسنأتي على طرف يسير من هذا الذكر، يتعلق بقصة فتاة النيل، التي تدل على خوف أهل مصر من جفاف النيل، وعدم جريانه، وما يترتب عليه من القحط.

وأمير الشعراء يشير في هذه الأبيات إلى قصة شهيرة هي مدار حديث اليوم.

هناك خبر شهير في كتب التاريخ العربي يفيد بأن أهل مصر قبل الإسلام كانوا يقدمون إلى نهر النيل فتاة جميلة قربانا، حتى يستمر في جريانه ولا يجف، وسأنقل رواية أبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم «ت 257» صاحب كتاب «فتوح مصر»، لأنه على الأغلب هو أول من رواها، وجاء فيها أن «أهل مصر جاءوا إلى عمرو بن العاص حين دخل «بؤونة» من أشهر العجم، فقالوا له أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلا بها، فقال لهم وما ذاك؟ قالوا إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجري، فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا «بؤونة» و«أبيب» و«مسرى» لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر (قد أصبت إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل، إذا أتاك كتابي)، فلما قدم الكتاب على عمرو، فتح البطاقة فإذا فيها (من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك)، فعرّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجري 16 ذراعا في ليلة، وقطع الله تلك السنّة السوء عن أهل مصر». وقد وردت القصة في كثير من مصادر التراث العربي، وتناقلها كثير من كبار العلماء والمؤرخين، ولم أر أحدا منهم يضعفها، حسب اطلاعي. ومن أوائل الذين شككوا في صحتها في العصر الحديث الأديب عباس العقاد في كتابه «عبقرية عمر» إذ يقول «والرواية على علاتها قابلة للشك في غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ»، ولم يورد أي دليل على ضعفها. كما تنكر الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها «القاهرة في حياتي» صحة القصة، إلا أنها تضيف أن «بلوتراك ذكر أن إيجيبتوس ملك مصر أراد اتقاء كوارث نزلت بالبلاد فأشار إليه الكهنة بإلقاء ابنته في النيل ففعل، ثم ألم به ندم شديد فألقى بنفسه في النيل فهلك مثلما هلكت». لكن هناك من يؤكد صحة القصة من المتخصصين في الحضارة والتاريخ الفرعوني مثل الدكتور أحمد سعيد، والدكتور عادل عبدالعزيز.

«بورخارت» رحالة ألماني مولع بتصوير المدن

هناك رحالة ليست لهم أهداف من وراء تطوافهم ورحلاتهم سوى حب الترحال والاستكشاف والمغامرة، فهم يعشقون الأسفار، والتعرف على المجتمعات الجديدة والغريبة. ويقال إن بورخارت من هذا النوع.

ولد هيرمان بورخارت عام 1857 لعائلة تجارية في برلين، وساعد والده في أعماله التجارية. وبعد وفاة والده الذي ترك ميراثا لا بأس به قرر بورخارت، وكان مولعا بالتصوير، أن يتفرغ لهوايته في الرحلات والاستكشاف والتصوير، فدرس اللغة العربية ولغات أخرى في قسم اللغات الشرقية في كلية برلين عام 1891، ثم بدأ تطوافه في أنحاء إفريقيا وآسيا في رحلات عديدة متتابعة لم تتوقف إلا بمقتله الغامض في اليمن. وكان قد خطط للسفر مع صديقه الرحالة روبرت ليركو إلى أستراليا وتسمانيا ونيوزلندا.

كانت أولى رحلاته الاستكشافية تلك التي قام بها إلى واحة سيوة في مصر عام 1893، ومذكراته عن هذه الرحلة لا تزال مفقودة حتى اليوم، إلا أن 50 صورة التقطها لمسار الرحلة ولواحة سيوة محفوظة.

استقر لاحقا في دمشق لبضع سنوات لتكون القاعدة التي ينطلق منها إلى رحلاته.

«هوسكا» قلعة الرعب والأشباح

منذ بنيت هذه القلعة والأساطير تدور حولها، وأشهرها أنه كان في موقعها حفرة عميقة وغامضة تذهب في أعماق الأرض فلا ترى نهايتها، ويظنون أن هذه الحفرة موطن الشياطين. وكان بعضهم يعتقد أنه تخرج منها شياطين وكائنات غريبة تسبب رعبا وهلعا للسكان. ولا تزال هذه الخرافات والأساطير سائدة حتى اليوم عند بعض الناس ولا سيما زوار هذه القلعة.

بنيت قلعة هوسكا التشيكية بين عامي 1253 و1278م، على الطراز القوطي القديم، في عهد بريميزيل أوتوكار الثاني ملك بوهيميا، وهو ابن الملك فينسيسلاوس الأول، وأمه هي كونيجونده من عائلة هوهنشتاوفن، وهو حفيد الملك الألماني فيليب السوابي. وقد بدأ بناءها أوتوكار في أول سنة من سنوات حكمه. وتقع القلعة على قمة جرف صخري في مكان غريب وبعيد من الريف التشيكي، وكان الهدف منها أن تكون مركزا لإدارة الملكيات الواسعة في البلاد. يقال إن الألمان استخدموها خلال الحرب العالمية الثانية كمعسكر لإجراء بعض التجارب الغامضة.